المعدن (١) . ويتصل ببلادهم معدن الزمرد الفائق الذى ليس له مثيل بعمور الأرض ، وهو بموضع يعرف بالخربة فى مفازة وجبال محمية بالبجاة ، وإليهم يؤدى الخفارة من يرد لحفر الزمرد . وبين هذا الموضع والنيل أكثر من ٢٠ مرحلة ، وبين هذا المعدن والعمران مسيرة سبعة أيام . ولا يعرف معدن للزمرد غيره إلا ببلاد البلهرى من بلاد الهند ولا يلحق بهذا (ا) . والهندى هو الذى يعرف بالمكى لأنه يحمل إلى عدن فيؤتى به مكة فاشتهر (ا) بهذا الاسم . والزمرد الذى يقطع من الخربة هو أربعة أنواع : فأعلاها الذى يعرف بالمرو ، وهو كثير المائية تشبه خضرته السلق إلا أنه يضرب إلى السواد . والنوع الثانى هو البحرى فى لون ورق الآس ، وإنما غلب عليه اسم البحرى لأن ملوك الهند والسند والصين يرغبون فيه ، ويفضلونه على غيره من الزمرد . والنوع الثالث يعرف بالمغربى لأن ملوك المغرب والأفرنج والأندلس والجلاقة يتنافسون فيه . والصنف الرابع وهو المسمى بالأصم ، وهو أدناها وأقلها ثمنا لقلة مائه وخضرته وكثرة ركوده . وأكثر حجارة الزمرد الفائق يبلغ وزن العدسة ١٠ دنانير ، وهذا المعدن قد انهارت غيرانه وتهدمت لبعد العمارة عنه وانقطاع الناس . ولا خلاف عند جميع من يقرب من موضع ذلك المعدن أن الحيات والأفاعى وسائر الحيوان المسموم لا يقرب هذا المعدن ولا حومته ، وقيل إن هذه الحيوانات إذا بصرت بالزمرد الفائق سالت عيونها ، وإن الملسوع إذا سقى منه وزن دانق برئ باذن الله تعالى . وكانت ملوك اليونانيين من أرباب الحكمة تفضله على جميع الأحجار ، وأهل الحكمة يقولون إن شعاعه نورى وخضرته تقوى بزيادة القمر وامتلائه ، والله تعالى فى علمه أسرار مخفية (٢).

(ا) الجمل الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ج .

(١) قارن الاصطخرى ، ص ٥٤ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠٧ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٤ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٤

(٢) هذه الرواية مأخوذة عن المسعودى (مروج الذهب ، ج ٣ ص ٤٣ وتابع ؛ أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٩٤ ، ١٩٧) . وقارن المسعودى ، التنبيه ، ص ٢٢ ؛ ابن حوقل ، ص ٩٩ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣ ؛ ابن الفقيه ، ص ٥٩

مدينة قفط : هى مدينة متوسطة المقدار أزلية لها سور ، وبينها وبين مدينة قوص أربعة أميال وفيها برى وبقربها شعراء كثيفة (١) .

مدينة أسوان : هى آخر مدن(ا) مصر لأنها ثغر متصل ببلاد النوبة وهم كفرة ، ولولا ما بين بلاد مصر وبلادهم من الجبال والأوعار التى تحول بينهم لأفسد النوبة بلاد مصر . والنيل إنما يهبط من بلاد النوبة على صخور وأوعار ولا يدخل ذلك الموضع مركب (٢) . ومن أسوان الطريق إلى عيذاب ؛ وعيذاب مدينة على ضفة البحر الغربى المعروف ببحر القلزم . ومن عيذاب يعبر إلى ساحل الحجاز إلى جدة ، ومن عيذاب يسلك إلى بلاد اليمن والهند وغير ذلك من البلاد (٣) .

ومن مدن مصر تنّيس و دمْيَاط : وهما مدينتان قد غلب على أكثر أرضهما ماء البحر . فمدينة تنيس مدينة كبيرة أزلية فيها آثار كثيرة للأول ، وأهلها ذو يسار وثروة وأكثرهم حاكه ، وبها تحاك ثياب الشروب التى لا يصنع مثلها فى الدنيا . ويصنع فيها لصاحب مصر قميص لا يدخل فيه من الغزل سدّاة (ب) ولُحْمَة غير أوقيتين وينسج من الذهب ٤٠٠ دينار ، قد أحكمه صانعه حتى لم يحوج إلى تفصيل ولا خياطة غير الجيب والبنائق (ج) ، والذى تبلغ القيمة فيه ١٠٠٠ دينار . وقد أحكمه صانعه حتى لم يحتاج إلى تفصيل ولا خياطة غير ما قلنا ، وكذلك إلى الآن يصنع لكل ملك من ملوك مصر هذا الثوب فى كل عام . ويسمى هذا القميص البَدَنة ، وليس فى جميع الدنيا طراز ثوب كتان يبلغ الثوب

(ا) النص : مدينة . (ب) ج : مداوة
(ج) « البنائق » ناقصة فى ب ، أما فى ج فهى اللبائق .

(١) أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ١٥٢ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٣ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٣ ص ٥٠ ؛ ابن جبير ، ص ٦٤ ؛ الادريسى ، ص ٤٨ ؛ أبو الفدا ، التوجمة ، ج ٢ ص ١٥١ ؛ ابن دقاق ، ص ٣٢

(٢) أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٩ ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٠ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٤ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٠

(٣) قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ، ص ٧٥١ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٥ ؛ ابن جبير ، ص ٦٦ وتابع ؛ ابن دقاق ، ص ٣٥

منه وهو سادج دون ذهب ١٠٠ دينار عينا غير طراز تنيس ودمياط . ويسكن بجزيرة تنيس ودمياط نصارى هم الآن تحت الذمة بحمد الله ، ونحن فى سنة ٨٦ [٥] (١) . وأهل تنيس يصيدون السمان وغير ذلك من الطير على أبواب دورهم ، فإنهم يمدون شباكا فى سككهم عند أبواب دورهم ، والسمان طير (ب) يجزع عند خروجه من البحر فيقع فى تلك الشباك . وكانت تنيس أخصب بلاد الله وأكثرها ثمارا وفاكهة ، وكانت مقسومة بين ملكين أخوين من ولد أبريت بن مصر ، وكان أحدهما مؤمنا والآخر كافرا . فأنفق المؤمن فيها من أمواله فى وجوه البر حتى باع من أخيه الكافر حصته فى تنيس ، فزاد فيها الكافر غروسا وأنهارا وبنى فيها مصانع ، فاحتاج أخوه إلى ما فى يده فمنعه وسطا عليه بماله وحشمه وحقره لفقره ، فقال له أخوه المؤمن : مالى أراك غير شاكر لله تعالى على ما رزقك ويوشك أن ينزع ذلك (ج) منك ويغير نعمته عنك . فأرسل الله تعالى على جناته ومصانعه الماء فأضحت خاوية على عروشها (١) ؛ فهما اللذان عنى الله تعالى فى سورة الكهف عز وجل : « واضرب لهم مثلا رجلين جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا فكلتا الجنتين آتت أكلها ولم تظلم منه شيئا » إلى آخر الآيات المحكمات (٢) . وتركب السفن من تنيس إلى الفرما وهى [على] ساحل البحر .

(ا) ب : ثمان وثمانون (ب) ب : يطير . (ج) ب : لذلك .

(١) قارن ابن وصيف – شاه ، الترجمة ، ص ٤١ – ٤٢ ؛ الادريسى ، ص ١٥٦ ؛ ابن رسته ، ص ٩٠ ؛ ابن حوقل ، ص ١٠١ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٧ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ؛ عبد اللطيف ، الترجمة ، ص ١٤٥ والهامش ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٦٠ ، ١٦٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٨٨٢ (تنيس) ، ج ٢ ص ٦٠٢ (دمياط) ؛ المقدسى ، ص ١٩٥ ؛ ابن دقاق ، ص ٧٨ وتابع ؛ كتاب الجغرافية ، المخطوط ، ص ٤٠ – ب (تنيس) ، ص ٤ – ب (دمياط) ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٦ وتابع ؛ Maspéro (J.) et Wiet (G.), Mémoires de l'institut du Caire. t 36 p. 60—1.

هنا لا يكتفى المؤلف بنقل رواية المسعودى كما هى (أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص١٧٧) بل نجده يضيف إليها التاريخ الذى يكتب فيه حتى ليظن أن المعلومات التى يوردها إنما هى معلوماته الخاصة . وهو لذلك يجهل أن تنيس كانت هدفا لعدد من غارات أهل صقلية سنة ٥٧١ (١١٧٥) وسنة ٥٧٣ (١١٧٧) ، وكذلك غارات الصليبيين بعسقلان سنة ٥٧٥ (١١٨٠) حتى أن الملك الكامل أمر فى سنة ٦٢٤=١٢٢٧ بهدم المدينة التى كان قد تم الجلاء عنها سنة ٥٨٨=١١٩٢ وهى نفس السنة التى كان يصنف فيها كتابه . أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٦

(٢) القرآن ، سورة ١٨ ، آية ٣١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٧٦

مدينة الفرما : وهى مدينة كبيرة قديمة أزلية فيها آثار كثيرة عجيبة تدل على أنها كانت دار مملكة . ويقال إن الذى بناها هو الفرما الملك ، ويذكر أهل مصر أن [ابن] المدبر لما ولى مصر وجه إلى الفرما لهدم أبواب من رخام بها فى شرق الحصن احتاج إلى أن يعمل منها فرشا فى داره فمنع من ذلك أهل الفرما ، وخرجوا إلى رسله بالسلاح ، وقالوا هذه الأبواب التى ذكرها الله تعالى على لسان يعقوب : « يا بنى لا تدخلوا من باب واحد وادخلوا من أبواب متفرقة » . ومن عجائب الدنيا نخل الفرما فإنها تثمر حين ينقطع البسر والرطب من جميع البلاد ، فيكون رطب نخل (ا) الفرما بكانون الأول حين تلد النخل فى كل مكان فلا ينقطع ٤ أشهر ، ولا يوجد هذا فى بلد من البلاد سوى الفرما ؛ وهو(ا) تمر كبير يوجد فى وزن التمرة ٢٠ درهما وطولها فتر (١) .

مدينة رشيد : وهى مدينة كبيرة على كثيب رمل عظيم ، إذا هبت الريح الغربية ، وهى تشتد عندهم ، ملأت عليهم سككهم وبيوتهم رملا فلا يقدرون على التصرف فى أسواقهم . وهم على ضفة النيل قرب البحر ، ومن أعجب منتزهات الدنيا ضفة النيل من مصر إلى مدينة رشيد هذه ، ولا غلة لثمار الأرض كغلة هذه الناحية . قال أبو عبيد البكري أن رجلا أخبره ، من أهل تلك النواحى ، أنه رأى ضيعة ما (ب) لأحد المصريين تغل فى رمانها وموزها خاصة ١٥ ألف مثقال فى العام (٢) . قال ، وهناك كانت ضيعة الليث بن سعد (ج) رحمه الله ، قال قتيبة سمعت الليث بن سعد يقول : « يدخل (د) على فى كل سنة ٥٠ ألف دينار ما وجبت عليها الزكاة قط ، يعنى أنها من الفواكه التى لا (ر) تجب فيها الزكاة (٣) .

(ا) الكلمات الواقعة بين (ا) ، (ا) ناقصة فى ج . (ب) ب : ما ضيعه .
(ج) ب : سعيد . (د) ب : دخلت . (ر) « لا » ناقصة فى ب .

(١) القرآن ، سورة ١٢ ، آية ٦٧ ؛ قارن ابن دقاق ، ص ٥٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢١٢ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٨٢ – ٨٨٣ ؛ ابن خرداذبه ، ص ٨١ (Blachère, Extraits, p. 28 et note) ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٠ ، ٣٣٧ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٩ . لا بأس من أن نذكر هنا أن الفرما لقيت نفس مصير تنيس ، ففى سنة ٥٤٥ (١١٥٠) دمرها الصليبيون وأحرقوها .

(٢) هنا يوجد خرم فى مخطوط البكرى . قارن ابن دقاق ، ص ١١٤

(٣) هو أبو الحارث المصرى الليث بن سعد بن عبد الرحمن الفهمى (٩٤ – ١٧٥ = ٧١٣–٧٩٢) اشتهر بمعرفته بالحديث . ولا نعرف الظروف التى ضاعت فيها تعاليمه ومذاهبه =

ذكر الفيوم : وهو قطر كبير فيه قرى كثيرة ، يقال إن فيه من القرى عدة ما فى قطر مصر كله من القرى ، فإن يوسف عم حين صنعه أنزل فى كل قرية أهل بيت من قرى مصر ؛ وسير لكل قرية من الماء بقدر ما يروى أرضها من غير زيادة ولا نقصان . ويقال أيضا إن بالفيوم ٣٦٠ قرية على عدد أيام السنة لاتقصر عن الرى أبدا لحكمة شربها ، فإذا نقص النيل فى سنة من السنين وغلا السعر بمصر مارت كل قرية منها مصر يوما . وحجر اللاهون بالفيوم من عجائب الدنيا واللاهون قرية كبيرة من قرى الفيوم . وهذا الحجر شاذروان مبنى بأحكم صنعة ، مدرج على ٦٠ درجة فيها فوارات (ا) فى أعلاها وفى وسطها وفى أسفلها . فتسقى (ب) العليا الأرض العليا ، والوسطى الأرض الوسطى ، والسفلى الأرض السفلى بوزن وقدر لا ينقص لأحد من دون حقه ولا يزاد له فوق حقه . وهو من أحكم البنيان وأتقنه ؛ قيل من ذلك الوقت عرفت الهندسة ؛ وذكر كثير من الناس أن يوسف عم عمله بالوحى . ولم تزل الملوك من الأمم تقصد هذا الموضع ويتأملون حسن صنعته ويتعجبون من غرائب حكمته ، ويقال إن الملك المعاصر ليوسف عم لما تأمله قال هذا من ملكوت السماء ، وهو من البناء الذى يبقى على غابر الأزمان ؛ ويقال إنه عمل من ٣ أشياء : من الفضة والنحاس والزجاج ؛ وفى الضفة الغربية منه مسجد يوسف عليه السلام . والفيوم يشرب من ١٢ ذراعا ، وليس بأرض مصر موضع يشرب من ١٢ ذراعا غير الفيوم لحكمة بنيان حجر اللاهون ، وإنما رى أرض مصر من ١٦ ذراعا ، فإذا زاد النيل على ١٢ قطع الماء عن الفيوم . فإذا كان يوم زيادته (ج) سد حجر اللاهون ، وحضر ذلك شهود أهل تلك الجهة والمهندسون وأمروهم بالطبول والبنود (د) فلم يكن لمن يدعى نقصان الماء عذر ، وخرجت الإرسال عند ذلك بالبشائر إلى مصر ، وهو عندهم يوم سرور ونزهة . وأهل الفيوم يزدرعون والماء باق على جميع أرض مصر ولم يتم جريه ، فإذا كان حصاد أهل مصر كان

(ا) ب : فوران . (ب) « فتسقى » ناقصة فى ب .

(ج) « زيادته » ناقصة فى ب .

(د) القراءة فى النص : حضر ذلك شهود تلك الجهة وأمروهم بالطبول والبنود والمهندسون فى أهل تلك الجهة .

= وذلك أن الشافعى أشاد بعلمه بل وفضله على مالك بن أنس . السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ١٦٤ ؛ الكندى ، القضاة والولاة ، ص ٢٩ ؛ Brockelmann, G. A. L. II, 82 .

ذلك أول السقية الثانية لأهل الفيوم فإنهم يزدرعون فى العام مرتين ، ويزدرعون السقية الثانية القمح والشعير والأرز فضلا عن القطانى . والفيوم أخصب بلاد الله تعالى وأكثرها فاكهة ، لا يعدم بها التمر والرطب شتاء ولا صيفا ، ولذلك غلتها أكثر جبايات بلاد مصر .

قال عبد الملك بن حبيب إنما سميت الفيوم لأن أخراجها ألف دينار كل يوم . والفيوم (ا) فى وسط بلاد مصر فلا يؤتى إلى كورة (ا) الفيوم من ناحية من النواحى إلا من صحراء أو مفازة ، ذكر ابن عفر وغيره أن عمرو بن العاص لما فتح بلاد مصر أقام سنة لا يعلم أين موضع الفيوم ولا حيث مكانه حتى بعث عمرو قيس بن الحارث إلى ناحية الصعيد يبحث عن الفيوم ، فسار حتى أتى القيس وبه سميت . فأبطأ على عمرو خبره فقال من يأتنا بخبر قيس ، فقال ربيعة بن حبيب أنا آتيك به ، فركب فرسا له أنثى فجاز بها النيل من الجهة الشرقية وكان معه عمرو بن ربيعة بن حبيب بن الصدفى وأصحابهم ، فمشوا فلما سلكوا فى المجابة لم يروا شيئا وهموا بالانصراف ، ثم ساروا قليلا فطلع له سواد الفيوم فطلبوا قيسا فوجدوه فى القيسين فأتوا عمرو بخبر الفيوم (١) .

مدينة الإسكندرية : (٢) ذكر أن اسمها بَرْدة ولها ١٥ كورة ، قالوا كانت الإسكندرية ٣ مدن كبار بعضها بجنب بعض : منها شتة وهى موضع المنار وما إلى ذلك ؛ والإسكندرية اسم قصبة السلطان وموضعه وهى باقية إلى اليوم ؛ والمدينة

(ا) الكلمات الواقعة بين (ا) و (ا) ناقصة فى ب .

(١) أنظر فيما سبق ، ص٧٤ – ٧٥ . قارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٩٣٣ وتابع ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٣ ، ١٤ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٨٤ (ينسب أصل أهل هذه الجهات إلى فتاة رومية وأمها) ، ج ١ ص ٢٠٩ ، ج ٢ ص ٣٨٥ – ٣٨٦ ؛ المقدسى ، ص ٢٠٣ ؛ ابن عبد ربه ، العقد ، ج ٣ ص ٣٦٢ ؛ الإدريسى ، ص ١٤٦ وتابع ؛ أبوالفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٨–١٥٩ وهامش ١ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٤٥ وتابع . وعن قيس أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٤ ص ٢١٥ ؛ ابن الفقيه ، ص ٧٣ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٢٠٤ . ويحتج Quatremère على نسبة قيس إلى رجل عربى ، ويقول إن القرية كانت موجودة وتحمل نفس هذا الاسم قبل الفتح العربى Mém, géog. et hist. sur l'Egypte, t, I p. 141 et suiv.

(٢) الفصول الخاصة بالإسكندرية نقلها البكرى عن المسعودى ؛ والجزء الأول منها ناقص فى مخطوط البكرى . أنظر المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢١ وتابع ، ٤٢٩ وتابع . ويجمع ياقوت فى معجمه (ج ١ ص٢٥٦) أهم ما قيل عن الإسكندرية ولا تنقصه فى ذلك =

الثالثة نقيطة . وكان على كل واحدة منها سور ، وقيل إنه كان على الإسكندرية ٣ مدن كبار و٧ أسوار بـ ٧ خنادق . وكان أصل بنائها أن الإسكندر استقام له ملكه(١) فى بلاده ، وكانت بلاده رومة وما إلى ذلك من بلاد الروم ، وكان فيما يقال روميا، فيقال إنه خرج يختار أرضا صحيحة الهواء والتربة والماء يبنى بها مدينة يسكنها، فأتى موضع الإسكندرية فأصاب به أثر بنيان وعمد رخام منها عمود عظيم مكتوب عليه بالقلم المسند (ب)، وهو القلم الأول من أقلام حمير وملوك عاد : « أنا شداد بن عاد ، سددت بساعدى الوادى وقطعت عظيم العماد من شوامخ الجبال والأوطاد ، وبنيت إرم ذات العماد التى لم يخلق مثلها فى البلاد . أردت أن أبنى هنا مدينة كارم وأنقل إليها كل ذى قدم من القبائل والأمم ، فأصابنى ما أعجلنى وعما ذهبت إليه قطعنى ، فارتحلت عن هذه الدار ، لا لقهر ملك جبار ولا بخوف جيش جرار ، ولكن لتمام المقدار ، وانقطاع الآثار ، وسلطان العزيز الجبار . فمن رأى أثرى وعرف خبرى وطول عمرى فلا يغتر بالدنيا بعدى » . قيل فلما رأى الإسكندر طيب أرض ذلك المكان وصحة هوائه وما به عزم على بنيان مدينة بذلك الموضع ، فبعث إلى البلاد فحشد الصناع واختط الأساس ، واستجلب العمد والرخام وأنواع المرمر الملون والأحجار فى البحر من جزيرة صقلية وبلاد إفريقية وأقريطش .

فلما اختط أساس المدينة كلها وحفره أراد أن يكون إنزال البناء فى وقت سعادة وبقاء على الدهور ، فوضع على حفير الأساس عمود رخام وعلى كل

(١) « له ملكه » ناقصة فى ب . (ب) ب : الهند .

= روح النقد . فهو يعرف أن الذى بناها هو الإسكندر بن فيليب ، ولكنه لا يستطيع إنكار المصادر الأخرى مثل ابن عبد الحكم وابن الفقيه والمسعودى وغيرهم ، فهو يورد رواياتهم . وهو لذلك يقدم عددا من الأساطير والخرافات الشعبية ، وينكر بعضها قائلا إن الجهال هم الذين يعتقدون فيها .

قارن عبد اللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٣ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٣٢ وتابع ؛ ابن خرداذبه ، ص ١٥٩ (حسب روايته طالت مدة بناء المدينة إلى ٣٠٠ سنة . ابن رسته ، ص ٨٠) ؛ ابن الفقيه ، ص ٦٩ – ٧٠ ؛ المقدسى ، ص ١٩٦ ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٩ ؛ الادريسى ، ص ١٣٨ وتابع ؛ أبو الفدا ، الترجمة ، ج ٢ ص ١٥٥ ؛ ابن دقاق ، ص ١١٦ وتابع ؛ ابن جبير ، ص ٤٠ وتابع ؛ العبدرى ، المخطوط ، ص ٤٩ – ا وتابع ؛ كتاب الجغرافيا ، المخطوط ، ص ٣٨ – ا وتابع ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٤٧ وتابع .

قطعة من الأرض خشبة قائمة ، ووصل بها حبالا منوطة بعضها ببعض يرجع جميعها إلى عمود الرخام ، وعلى العمود جرسا عظيما وعلى كل قطعة من تلك الحبال جرسا صغيرا ، فإذا حركوا حبل الجرس الكبير على العمود وخفق تحركت سائر الحبال وخفقت الأجراس . وأقام الإسكندر يرقب الوقت المحمود ، وأمر الصناع إذا سمعوا تحريك الأجراس أن يضعوا الأساس دفعة واحدة وقد كانوا استعدوا لذلك . فبينما الإسكندر يرقب الوقت أصابته سنة ، فوقع غراب على حبل الجرس الكبير فحركه فتحركت جميع الأجراس ، فوضع البناؤون فى تلك الساعة الأساس (١) . وارتفع الضجيج بالتحميد والتسبيح فاستيقظ الإسكندر لضجيجهم ، فسأل عن الخبر فأعلن ، فعجب من ذلك ، وقال : « أردت أمرا فأراد الله غيره ويأبى الله إلا ما يريد ، أردت طول بقائها وأراد الله سرعة بنائها » (٢). ثم تمادى على عملها وبنى المدينة على آزاج وطبقات قد عمل لها مخاريق ومتنفسات للضوء ، يسير الفارس وبيده رمح طويل فلا يضيق به طريق من تلك الآزاج حتى بدور جميع الإسكندرية . وكذلك كانت أسواقها مقنطرة فلا يصيب أهلها المطر . وبنى أسوارها من أنواع الرخام الأبيض والملون ، وكذلك جميع قصورها ودورها ، فكانت تضئ بالليل بغير مصباح لشدة بياض الرخام ، وربما علت على أسوارها شقاق الحرير الأخضر لاختطاف بياضها أبصار الناس (٣). وبنى عليها ٧ أسوار وأمام كل سور خندق ، وبين كل خندق وسور فصيل .

ويقال إنها كانت أعظم مدينة بنيت فى معمور الأرض وأغربها بنيانا ، فقيل إنه كان سكان البحر يؤذون الناس ويختطفونهم بالليل ، فاتخذ الإسكندر الطلسمات مصورة على أعمدة رخام على هيئة شجرة السرو ، طول العمود منها ٨٠ ذراعا ، وهى باقية إلى هذه الغاية . يقال إنها على أعمدة نحاس قد خرقت الأرض فصورت

(١) هنا تجدر الإشارة إلى أن ابن تغرى بردى (النجوم الزاهرة ، ج ٢ ص ٤١٥) ينسب هذه الأسطورة إلى بناء القاهرة .

(٢) القراءة فى المسعودى (مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٢٤) : « .. أردت طول بقائها وأراد الله سرعة فنائها وخرابها .. » .

(٣) حسب رواية أخرى ظل أهل المدينة يضمون الخرق السود على عيونهم طوال ٧٠ عاما خوفا على أبصارهم من شدة بياض الرخام . ابن عبد الحكم ، ص ٣٦ ؛ ابن خرداذبه ، ص ١٥٩ ؛ ابن رسته ، ص ٨٠

فيها أشكال وصور تمنع وتدفع(ا) . وبنى المنار على طرف اللسان الداخل فى البحر من البر ، وجعله على كرسى من زجاج على هيئة السرطان فى جوف البحر (١) ، وجعل طوله فى الهواء ألف ذراع (٢) ، وجعل فى أعلاه المرآة . وكانت المرآة قد ركبت من أخلاط غريبة فيبصر فيها ما يأتى من مراكب العدو على مسيرة أيام فيتأهب لهم ، فإن قربت المراكب من البلد عملت أخلاط بأدهان يعرفونها وطليت بها المرآة وعكس شعاعها على تلك المراكب فأحرقتها . وجعل فى المنار تماثيل من نحاس وطلاسم كثيرة تمنع وتدفع ولها خواص ، فمنها تمثال قد أشار بسبابة يده اليمنى نحو الشمس حيث كانت من مشرق أو مغرب أو أفق فيدور معها ، وتمثال يشير بيده نحو العدو إذا كان منه على مقدار ليلة ، فإن دنا وأمكن أن يرى بالبصر يسمع لذلك التمثال صوت هائل على ميلين أو ثلاثة . وتمثال آخر كلما مضى من الليل أو من النهار ساعة سمع له صوت طرب بخلاف الصوت الذى كان منه قبل ذلك . وقد اختلف الناس والرواة فى أمر بناء هذا المنار فمنهم من رأى أنه من بناء الإسكندر ؛ ومنهم من رأى أن دلوكه (ب) الملكة بنتها ؛ ومنهم من رأى أن جيرون الملك المتقدم الذكر بناها . وقيل إن الذى بنى الأهرام بناها ، وقيل إن الذى بنى رومة المدينة العظمى بنى الإسكندرية وبنى منارتها . وإنما أضيفت الإسكندرية إلى الإسكندر لسكناه بها وغلبته ممالك الأرض منها . وقيل إن الإسكندر كان لا يخاف أن يطرقه عدو فى البحر ولا يهاب ملكا يرد عليه فيجعل لذلك مرقبا وحراسا . قال عبد الله بن عمرو

(ا) ب : تدوم . (ب) « دلوكه » ناقصة فى ب .

(١) يقول المسعودى (مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٩ ، التنبيه ، ص ٤٧) إن بطلميوس بنى المنار بعد موت الإسكندر بن فيليب . ويروى ابن رسته (ص ٨٠ ، ١١٨) وابن الفقيه (ص ٧٠) وابن خرداذبه (ص ١٥٩) والمسعودى (فى مناسبة أخرى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣١) أن المنار من عمل الإسكندر ، وأنه حسب قول البعض من عمل دلوكه بانية الأهرام .

(٢) لا يتفق الكتاب فيما يختص بمقاييس المنار . ورغم الإعجاب البالغ الذى يثيره فإن ياقوت يؤكد خيبة أمله حينما رآه بعد ما سمعه عنه (معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣) .

وعن ارتفاع المنار أنظر عبد اللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٣ (٢٥٠ ذراعا) ؛ ابن جبير ، ص ٤١ (أكثر من ١٥٠ قامة) ؛ اليعقوبى ، ص ٣٣٨ (١٧٥ ذراعا) ؛ ابن رسته ، ص ١١٨ (٣٠٠ ذراع بذراع الملك أى ٤٥٠ ذراع بمقياس اليد) ؛ الإدريسى ، ص ١٣٩ (١٠٠ قامة) . قارن Asin Palacios, Una descripcion nueva del Faro de Alejandria, Al-Andalus, 1933, fasc. 2, p. 245, 599.

ابن العاص إن أول من ملك الإسكندرية فرعون واتخذ فيها مصانع ومجالس ، وهو أول من عمرها ثم تداولها الملوك بعده ، وإن سليمان بن داود عم اتخذها مسكنا وبنى فيها قصورا ومصانع عجيبة من بناء الجن ، وبنى فى المنار مسجدا مقفلا وهو باق إلى الآن . والأصح أن الإسكندر بناها من أولها واختط أساسها وبنى المنار فيها وعمل المرآة فى أعلاها ، فيقال إنه ما ظهر العدو فى البحر ولا ضرب بأسيافه الإسكندرية إلا بعد زوال تلك المرآة ، وكان زوالها فى خلافة الوليد بن عبد الملك بن مروان . وذلك أن ملك الروم أعمل الحيلة فى زوال المرآة من المنار ، فبعث خادما من خواص خدمه ذا دهاء ورأى ومعرفة بما يتناول من أشغاله ، فجاء مستأمنا إلى بعض الثغور . فحمل إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك بن مروان فأعلمه أنه كان من خواص ملك الروم وأنه أراد قتله لموجدة لم يكن لها حقيقة ، وأنه هرب منها ورغب فى الإسلام فأسلم بين يدى الوليد ، وأظهر له النصح فى أشياء خدمه فيها . ثم إنه استخرج له دفائن فى بلاد دمشق وغيرها من بلاد الشام بكتب كانت عنده ، فلما رأى ذلك الوليد شرهت(ا) نفسه وتمكن طمعه وباحثه عما عنده من هذا الفن ؛ فقال له إن الإسكندر استولى على ممالك العالم ، واحتوى على الأموال والذخائر التى كانت لشداد بن عاد وغيره من ملوك العرب والعجم والفرس وغيرهم من الأمم ؛ فبنى لها الآزاج والأسراب والأخباء ، وأودعها تلك الذخائر والأموال والجواهر ثم بنى فوقها تلك المنارة التى بالإسكندرية . فلو هدم ذلك المنار استخرج من تحته(ب) من الأموال والذخائر والكنوز وما لا عين رأت ؛ فصدق ذلك الوليد وطمع فيه ، وبعث معه (ب) من خواصه وثقاته من يقف على هدم المنار ، وأمر صاحب الإسكندرية أن يعينه على جميع ما يريد ، فهدم ذلك الرومى قدر نصف المنار (١) وأزال المرآة التى كانت غرضه وأراد هدم الكل ، فضج أهل

(ا) ب : شرحت .

(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ج

(١) حسب المسعودى (التنبيه ، ص ٤٨ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٧) انهدم جزء من المنار يقدر بحوالى ٣٠ ذراعا فى شهر رمضان سنة ٣٤٤ = أكتوبر ٩٥٥ بفعل الزلزال .

الإسكندرية ، وعلموا أنها مكيدة وحيلة . فلما استفاض ذلك خشى الرومى على نفسه ، وهرب فى الليل (ا) فى مركب كان قد أعده لذلك الوقت ؛ وبقيت المنارة على ذلك المقدار إلى هذا الوقت .

صفة المنارة اليوم : هى اليوم ٣ أحزم ؛ أما الحزام الأول فهو مربع البناء ، قد عمل أحسن عمل بحجارة مربعة قد خفى التصاقها حتى صارت كالحجر الواحد لم يغيره الزمان ، ارتفاعه ٣٢٠ ذراعا . ثم ترك فى أعلاه قدر غلظ الحائط وهو ٨ أصابع ونحو ١٠ أذرع سوى ذلك الغلظ (١) ؛ ورفع على ما بقى من البناء بناء مثمن الشكل طوله ٨٠ ذراعا (٢) . ثم ترك قدر غلظ حائطه وهو أقل من غلظ الأسفل وهو نحو ٨ أذرع سوى ذلك [الغلظ] ؛ ثم أقيم عليه بناء مربع الشكل ارتفاعه ٥٠ ذراعا (٣) ونحوها . وفى أعلا ذلك مسجد محكم البناء ويقال إنه مسجد سليمان (٤) . وفى الناحية الشمالية من البناء كتابة من النحاس لم يقدر أحد على فكها ولا معرفة ما هى . وباب المنارة حديد لا يعلم له عهد ، ويرقى إلى الباب من أسفل المنارة فى علوة لا تثبين ، وكذلك إلى أعلا (ب) الحزام الأول فى طريق يمشى فيه فارسان متناكبان فى أرض سهلة لا يكاد الراقى يعلم فيه

(ا) ب : النيل . (ب) « إلى » ناقصة فى ب ، ج .

(١) قارن المسعودى ، التنبيه ، ص ٤٧ (الطبقة الأولى ارتفاعها ١١٠ ذراعا) ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٤ (الطبقة الأولى مربعة وارتفاعها ١٢١ ذراعا) . حسب العبدرى (المخطوط ، ص ٥٠ – ا) غلظ الحائط ١٠ أشبار .

(٢) قارن المسعودى ، التنبيه ، ص ٤٥ (ارتفاع الطبقة الثانية ٦٠ ذراعا) ؛ عبداللطيف ، ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٧ (الطبقة الثانية مثمنة وارتفاعها ٨١ ذراعا ونصف ذراع) .

(٣) على عكس ما يقوله صاحب الاستبصار يذكر عبد اللطيف (ص ١١٤ والترجمة ص ١٨٤) أن الطبقة الثالثة دائرية (وارتفاعها ٣١ ذراعا) . قارن المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٧ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٤

(٤) يروى ابن عبد الحكم (ص ٣٥) أن سليمان بنى هذا المسجد عند ما اتخذ الإسكندرية عاصمة لملكه ؛ وبعده هدم الإسكندر المدينة عدا المنار الذى ظل سليما ثم أعاد بناءها . وفى رواية أخرى (ص ٣٦) يقول إن المنار ، حسب ما يقال ، كان من عمل كليوباتره . قارن ابن جبير ، ص ٤١ ؛ عبد اللطيف ، ص ١١٦ والترجمة ص ١٨٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٤ (الذى ينسب بناء المسجد إلى ابن طولون) .

هل هو راق أو ماش ، فى كل عطف من هذا المصعد باب دار داخلها بيوت مربعة ، سعة كل بيت منها ٢٠ ذراعا إلى ١٠ أذرع ، قد فتح له مضاو ومنافس للهواء لئلا تهدمها الرياح . وعدد ما فى المنار من البيوت ٣٦٤ بيتا (١) ، وعطف مطالعها من أسفلها إلى أعلاها ٧٢ عطفا وفى كل عطف ١٢ درجة . وبيوتها كلها آزاج معقودة ، وبناء المنار كله معقود بخشب الساج ، وعدة أبوابها الظاهرة خارجا ٢٢ بابا ، فتحت لتخرقه الرياح ولولا ذلك لهدمته . وهذا المنار من دخله ولم يعرف مسالكه تاه فيه وضل لأن فيه طرقا تولى إلى أسفله وإلى سرطان الزجاج المتقدم الذكر وإلى البحر . ويقال (ا) إن جيش صاحب المغرب حين وصل الإسكندرية وذلك فى خلافة المقتدر (٢) ، دخل جماعة منهم المنار على خيولهم ليروا ما فيه من الغرائب ، فتاهوا وتهوروا هم ودوابهم وفقد منهم عدد كثير . وقد كان البحر أثر فى أسفل المنارة من غربيها كالكهف العظيم فسد بعض أمراء مصر – أظنه من العبيديين (٣) – ذلك الثلم بأساطين الرخام بعضها فوق بعض . فالبحر يضرب اليوم فى تلك الأساطين فلا يؤثر فيها شيئا . وفى جهة الشمال من المنار بناء عظيم عريض ارتفع من قعر البحر حتى ظهر على وجه الماء ، يدل على أنه كانت عليه مصانع قد ذهبت ، ويسمى ذلك البنيان الفاروس ؛ تحته ترسو السفن لأنه يكف عنها الرياح والموج . وقد زعم قوم أن ذلك الظاهر ليس بيتا وإنما هو ما هدم من حجارة المنار الذى ذكرنا .

قال بعض العارفين إذا أردت أن تبصر ارتفاع المنار وعلوه من الجو فاخرج من الإسكندرية من باب أشتوم (ب) ، وتسير على ضفة البحر نحو نصف ميل ثم تسير نحو الشمال مقدار ذلك ثم تسير على بناء فى البحر كالقناطر (ج) ولها منافس والبحر يضرب من ناحيتها نحو ٤٠٠ خطوه ، فإذا خرجت من ذلك البناء سرت

(ا) و« يقال » ناقصة فى ب (ب) ب : استومر .

(ج) القراءة فى النص : كالقناطير .

(١) رغم الروايات المختلفة مثل التى يوردها الاصطخرى (ص ٥١) والمقدسى (ص ٢١١) يقرر ياقوت (معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦٣) أنها مبنية على خرافات ومبالغات لا أساس لها .

(٢) أنظر فيما سبق هامش ٣ ص ١٤

(٣) ينسب المسعودى (التنبيه ، ص ٤٨) هذه الترميمات إلى أحمد بن طولون . قارن المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٥٧

فى فضاء داخل فى البحر كأنه جزيرة والمنارة فى أعلا هضبة منها . وقد أحاط البحر بالمنارة من ٣ جهات : من ناحية الشمال والغرب والجنوب ؛ فتنظر حينئذ إلى المنارة فتراها كأنها سحابة قد ارتفعت فى الجو ، فتظن أنها ترتعد من انعكاس شعاع الشمس وضرباته فى المنارة (١) .

ولهذه المنارة بالإسكندرية مجتمع فى العام يسمونه بخميس العدس (١) ، وهو أول خميس فى شهر مايه لا يختلف فى مدينة الإسكندرية عن الخروج إلى المنار فى ذلك اليوم أحد . وقد أعدوا لذلك اليوم الأطعمة والأشربة ، ولابد فى ذلك الطعام من العدس . فيفتح بابها للناس ويدخلون فيها ، فمن ذاكر لله تعالى ومن مصل ومن لاه ومتفرج ، فيقيمون إلى نصف النهار ثم ينصرفون (٢) . ومن ذلك اليوم بعينه يحترس البحر . وفى المنارة قوم مرتبون يوقدون النار الليل كله فى الحزام الأول ، فيوم أهل السفن سمت تلك النار (ب) من جميع البلاد ؛ ويوقد صاحب السفينة النار فى سفينته فإذا رأى المحترسون النار فى البحر ، زادوا فى وقود النار وأوقدوها من جهة المدينة ؛ فإذا رأى ذلك محترسو المدينة ضربوا البوقات والأجراس حذرا من العدو .

وكان حول المنار مغائض يستخرج منها أنواع من الأحجار يتخذ منها فصوص الخواتم ، مثل الاسباد شيخ ومثل الكركهن والباقلمون وغير ذلك من الأحجار الغريبة التى لا توجد فى هذا الزمان ولها خواص . وهذا الباقلمون حجر يتلون ألوانا مختلفة عند النظر إليه كلون ريش الطواويس الهندية ؛ فإن ألوان ريشها أحسن ألوانا من هذه الطواويس التى بهذه البلاد . ولطواويس الهند جمال عظيم وخلق عجيب ، تمتزج ألوان ريشها وتترادف فيها فيرى لها منظر عجيب ؛ وأصلها من الهند وما خرج منها من ديار الهند صغر حجمه وكدر لونه كما (ج) يفعل ما نقل من النارنج والأترج من بلاد الهند ، فإنها تصغر وتعدم تلك الروائح العطرية لعدم ذلك الهواء والتربة . قيل وكان حول المنار من تلك الجواهر كثير ، فيقال إن الإسكندر أغرق ذلك حول المنار فيوجد هناك إذا طلب ، ويكون ذلك الموضع أبقى لها ويرى الناس على مر الدهور عظيم ملكه

(ا) النص : العرس . (ب) ب : الناس .
(ج) « كما » ناقصة فى ب .

(١) قارن ابن رسته ، ص ١١٨ ؛ المقدسى ، ص ٢١١

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٠ ؛ انظر المقريزى ، الخطط ، ص ٢٦٦ ، ٤٩٥

وما قدر عليه لوجود ما عز عند غيره (ا) مطلبه . وقيل أيضا إنها كانت آلات شراب الإسكندر ، فلما مات كسرتها أمه ورمت بها فى تلك المواضع غيرة أن ينتفع بها أحد (١) . والقصر الأعظم الذى كان بالإسكندرية ، لم يكن له على معمور الأرض نظير ، هو اليوم خراب . وهو على ربوة عظيمة بإزاء باب المدينة طوله ٥٠٠ ذراع وعرضه على النصف من ذلك ولم يبق منه إلا بعض سواريه ؛ وبابه من أحكم بناء وأتقنه على عضادة من حجر واحد ، وعتبته حجر واحد ؛ فيه نحو ١٠٠ إسطوانة قائمة غلظ كل واحدة نحو عشرة إشبار (ب) . وفى نحو الشمال منه أسطوانة عظيمة لم يسمع بمثلها ، غلظها (ب) ٣٦ شبرا وهى من العلو بحيث لا يدرك أعلاها قاذف بحجر ، وعليها رأس محكم الصناعة يدل على أن بناء كان عليها ، وتحتها قاعدة من حجر أحمر مربع الشكل محكم عرض كل ضلع من أضلاعه ٢٠ شبرا فى ارتفاع ٨ أشبار . والأسطوانة منزلة فى عامود من حديد قد خرقت به الأرض ، فإذا اشتدت الرياح رأيتها تتحرك وربما جعلت تحتها الحجارة فتطحنها لشدة حركتها (٢) . وهذه الأسطوانة (ج) من إحدى أعاجيب الدنيا ، ويقال إن الجن صنعتها لسليمان بن داود عم . وكانت وسط قبة وحولها أساطين ، وأعلا الكل قبة تشبه الصحفة من حجر واحد رخام أبيض بأحسن صنعة (د) وأغرب إتقان . فلما مات سليمان بن داود عم (د) ، رفعت الجن تلك القبة ورمت بها فى البحر ، فإنها كانت من غرائب ما عملت الجن لسيدنا سليمان بن داود عم (د) . قال حمزة بن محمد المصرى إن بعض ملوك مصر دخل الإسكندرية ورأى قصرها فنظر إلى قصر عجيب الشأن غريب البنيان من بناء الأولين ، فدعا الصناع وسألهم أن يبنوا له مثله فقالوا له لا نقدر على ذلك ، فعزم عليهم فقام إليه شيخ وقال : أنا أبنى لك مثله وأحسن منه إن فعلت لى ما أريد ، قال بلى ، قال : إيتونى بثورين مطيقين وعجلة فأمر له بذلك فدخل

(ا) « غيره » ناقصة فى ب .
(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ب .
(ج) ب : السطوفه . (د) ج : صفة .
(ر) الجمل الواقعة بين (ر) ، (ر) ناقصة فى ب .

(١) المسعودى ، مروج الذهب ، ج ٢ ص ٤٣٧ وتابع .

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٦١ (والمقتطف الذى نقله De Sacy : عبد اللطيف هامش ٥٣ ص ٢٣٢ وتابع ٢)

مقابر الأولين واحتفر قبرا منها واستخرج جمجمة عظيمة ، فوضعها فى العجلة فما جرها الثوران إلا بعد مشقة وجهد ، فجاءه فقال أصلح الله الأمير إن أعطيتنى من تكون رؤوسهم مثل هذا الرأس بنيت لك مثل هذا القصر ، فعلم أنه لا يقدر على ذلك [1]. وقال حمزة بن محمد أيضا : رأيت بالاسكندرية قصابا عنده ضرس يزن به اللحم زنته ٨ أرطال[2] . وكان بالإسكندرية دار ملعب قد تهدم أكثرها ، وكانت قد بنيت بضروب من الحكمة ، وكانوا يجلسون فيها لقضاء حوائجهم ، فكان كل جالس فيها إنما جلوسه تلقاء وجه صاحبه ولا يخفى على أحد منهم شئ من حال غيره ، يتساوى قريبهم وبعيدهم فى ذلك . وكان لهم يوم مهرجان يجتمعون فيه فى هذا الملعب ، ويحضره رؤساؤهم وأبناء ملوكهم وعامتهم ، ويلعب فيه الصبيان (ا) والفتيان بالصوالج وبينهم كرة (ب) . فإن دخلت تلك الكرة كم رجل ممن حضر فى ذلك اليوم فلابد له من ولاية مصر ؛ كان هذا عيدهم معروف لا ينكره أحد . وكان عمرو بن العاص رحمه الله قد سافر إلى الإسكندرية فى الجاهلية تاجرا بالقطن والأدم ، فحضر ذلك الملعب فى ذلك اليوم ، فلعبوا فيه بالكرة فدخلت كم عمرو بن العاص حتى أتى (ج) الله بالإسلام فكان ما قدر الله تعالى من دخول عمرو مصر وولايتها ٣ مرات[3] .

والإسكندرية تعجب كل من رآها لبهجتها وحسن منظرها ، وارتفاع مبانيها وإتقانها وسعة شوارعها وطرقاتها . وهى برية بحرية ، وفيها من النعم والأرزاق والفواكه ماليس ببلد مع طيب هوائها وتربتها . وقد ذهب بعض المفسرين

(ا) « الصبيان » ناقصة فى ب . (ب) ج : كورة .
(ج) « أتى » ناقصة فى ب .

(١) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٢ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٠ . يحتج عبد اللطيف (ص ١٣٠ والترجمة ص ١٩٠) ضد هذا الاعتقاد ويقول : « وإذا رأى اللبيب هذه الآثار عذر العوام فى اعتقادهم عن الأوائل بأن أعمارهم كانت طويلة وجثثهم عظيمة ، أو أنه كان لهم عصا إذ ضربوا بها الحجر سعى بين أيديهم » .

(٢) أنظر المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٠ . وقارن ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢٦١ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٢٤

(٣) أنظر الكندى ، الولاة والقضاة ، ص ٧ ؛ ابن دقاق ، ص ١٢٥ – ١٢٦ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ٣١ ، ١٥٨ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٥٥

إلى أن إرم ذات العماد هى الاسكندرية[1] . وقال الناظرون فى الأعمار فى جميع الأقاليم والأمصار : لم تطل أعمار الناس فى بلد من البلدان كطولها بمريوط ووادى فرغانة ؛ ومريوط قرية من قرى الإسكندرية بالقرب منها ؛ وهى كبيرة ولها بساتين كثيرة (ا) ومنها تجلب الفواكه إلى الإسكندرية . ويروى أن عوف بن مالك حين دخل مدينة الإسكندرية قال لأهلها[2] : « ما أحسن مدينتكم » ، فقالوا له إن الإسكندر حين بناها قال : « أبنى مدينة إلى الله فقيرة وعن (ب) الناس غنية » فبقيت بهجتها على مر الدهور . وكان الفرما أخو الإسكندر بنى مدينة الفرما وقال : « إنى أبنى مدينة عن الله غنية وإلى الناس فقيرة » ، فذهبت بهجتها ولا يزال ينهدم منها كل يوم شئ لا يجبر أبدا [3] ويقال إن عمر بن عبد العزيز لما دخل الإسكندرية ، وكان إذ ذاك والى مصر ، ورأى عظمتها وسعة آثارها وعلم أنها كانت مدينة كبيرة قال لعاملها وكان من أهلها : « أخبرنى كم كان عدد سكان الإسكندرية فى أيام الروم » ؛ فقال له : « والله لا أدرك علم ذلك أحد إلا الله وحده ، ولكنى أخبرك كم كان عدد رؤسائهم ورؤسائها وملوكها فإن ملك الروم أمر بإحصائهم ، وكتب ذلك فى تواريخهم وكتبهم ، فوجدهم ٦٠٠ ألف ملك[4] . والدليل على عظم شأنها وكثرة ملوكها أن المطر إذا نزل فيها نزولا شديدا وسال ترابها مع الماء ، خرج من فيها من الرجال والنساء والصبيان والضعفاء يلتمسون حوالها ، فيجدون قطع الذهب والفضة من الحلى وغيره والياقوت والزمرد وأنواع الجواهر ، وليس يرجع أحدا منهم بغير شىء .

(ا) « ولها بساتين كثيرة » ناقصة فى ب . (ب) النص : وإلى .

(١) تقول الروايات إن إرم ذات العماد ، عاصمة قبيلة عاد المذكورة فى القرآن (سورة ٨٩ ، آية ٦) ، هى الإسكندرية لوجود الأعمدة بها وخاصة عمود السوارى المشهور . ومن هذه الأسطورة خرجت الخرافة التى تقول إن بانى الإسكندرية هو شداد بن عاد الذى ينسب إليه زيادة على ذلك بناء الاهرام . أنظر ياقوت ، معجم البلدان ، ج ١ ص ٢١٢ – ٢١٣

(٢) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٣ ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ج ٣ ص ٨٨٣ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، ج ١ ص ٦٥

(٣) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٤ ؛ المقريزى ، الخطط ، ج ١ ص ١٦٢ ؛ ابن خرداذبه (ص ١٥٩) يقول أنه كان بها من اليهود ٦٠٠ ألف سوى أهلها

(٤) البكرى ، المخطوط ، ص ٦٥ ؛ اليعقوبى ، ص ٣١٩ ؛ المقدسى ، ص ١٩٤ ؛ ابن دقاق ، ص ١٢٦

ومدينة الاسكندرية أعظم مدن مصر ، وبلاد مصر كلها فيها من العجائب والغرائب ما يعجز عنه الواصفون . ذكر أن أحمد بن طولون كان صاحب مصر فى سنة نيف ومائتين وكان مولعا بمعرفة هذه الآثار القديمة والعجائب[1] ، فذكر له أن رجلا من الأقباط بأرض الصعيد ، وهى من أعالى بلاد مصر ، له (ا) نحو ١٣٠ سنة ، وهو ممن عنى من لدن حداثته بالعلم والإشراف على الآراء وانتحل من مذاهب المتفلسفين وغيرهم ، وأنه علامة بالممالك والملوك ومعرفة بهيئة الأفلاك والنجوم ؛ وكان نصرانيا على مذهب اليعاقبة . فبعث ابن طولون إليه قائدا من قواده فحمله إليه فى النيل مكرما ؛ وكان الشيخ قد انفرد عن الناس فى بنيان قد اتخذه وسكن فى أعلاه ، وكان قد رأى الرابع عشر من ولده . فلما وصل إلى أحمد بن طولون أكرمه وأبره وأسكنه بعض مقاصيره ومهد له موضع جلوسه وحمل إليه لذيذ المأكل والمشرب ، فأبى الشيخ أن يتغذى أو يلبس إلا ما حمل مع نفسه من كعك وسويق ونحوها ، وقال هذه بنية قوامها بما ترون من الغذاء والملبس فإن أنتم سمتمونى النقل على العادة كان ذلك سبب انحلال البنية ويفوتكم منى ما تطلبونه ، فتركه ابن طولون وما يريده . ثم أحضره مجلسه مع أهل الدراية من أصحابه وخواص مجلسه وصرف إليه همته وغرضه ؛ فلما سأله عن بحيرة تنيس ودمياط المتقدم ذكرهما ، قال كان موضع البحيرة أرضا لم يكن بديار مصر مثلها لطيب التربة وذكاء الربيع ؛ وكانت جنات متصلة ولم يكن بمصر كورة يقال إنها تشبه الفيوم إلا هى وحدها ، وكانت أكثر فاكهة منه ؛ وكان الماء ينحدر إلى قرى موضع البحيرة صيفا وشتاء يسقون منه متى شاءوا ، وفضلة الماء تصب فى البحيرة . وكان بين العريش وقرص طريق مسلوكة فى يبس ، وبينهما اليوم مسير طويل فى البحر ، فلما كان قبل استفتاح المسلمين بلاد مصر بـ ١٠٠ سنة طما ماء البحر وزاد فأغرق القرى التى كانت فى موضع البحيرة ، وما كان منها فى البقاع المرتفعة فهى باقية إلى الآن قد أحاط بها الماء . وقال وعند هذه الزيادة التى زادها ماء البحر ، طغى الماء على القنطرة التى كانت بين بلاد الأندلس وبين

(ا) « له » ناقصة فى ب .

(١) الصفحات التالية مأخوذة عن المسعودى (مروج الذهب ، ج ٢ ص ٣٧٢ وتابع) بمعرفة البكرى كما لاحظ ذلك العبدرى (المخطوط ، ص ٦٩ – ا) . قارن النجوم الزاهرة ، ج ١ ص ٤٣

ساحل طنجة من أرض المغرب . وكانت قنطرة عظيمة لا يعلم فى معمور الأرض مثلها ، مبنية بالحجارة ، تمر عليها الإبل والدواب من ساحل المغرب إلى الأندلس ، وكان طولها ١٢ ميلا فى عرض واسع وسمو كبير ؛ وربما بدت هذه القنطرة لأهل السفن تحت الماء فعرفوها .

وسئل عن ممالك الحبشة والأحابيش التى على النيل ، فقال ألفيت منهم ٦٠ ملكا كل ملك منهم ينازع من يليه . قال وبسبب استحكام النارية فى بلادهم ، تكون عندهم معادن الذهب كثيرة ، فإن حرارة الشمس ويبسها يغير الفضة ذهبا ، فإذا طبخ ذلك الذهب بالملح والزاج والطوب ، خرج مافيه من الفضة .

وسئل عن منتهى النيل فى أعلاه ، فقال أصله من البحيرة التى لا يدرك طولها ولا عرضها ، وهى تحت خط الاستواء تحت قنطرة الفلك المستقيم ؛ وهو الموضع الذى فيه الليل والنهار متساويان الدهر كله .

وسئل عن الأهرام ، فقال إنها قبور الملوك ؛ وكان الملك إذا مات وضع فى حوض من رخام ثم أطبق عليه وبنى له هرم على قدر همة وليه (ا) ، ثم يوضع الحوض فى وسط الهرم ويصنع باب الهرم تحت الحوض ، ثم يحفر له طريق فى الأرض ويعقدونه آزاجا . فقيل له فكيف هذه الأهرام المملسة وكيف كانوا يصعدون (ب) لبنائها ؛ فقال كانوا يبنون الهرم مدرجا ويصعدون لبنائه فإذا فرغوا من عمله نحتوه . قيل له وكيف كانوا يصنعون (ب) بهذه الحجارة العظيمة التى لا يقدر ١٠٠ رجل منا أن يزحزحوا منها حجرا واحدا ؛ قال كانت لهم فراقل قد دبروها بأخلاط من المعادن وأنواع من الحكم ، فكانوا يضربون بها الحجر الكبير فينقسم لهم على القدر الذى يريدون ويتأتى لهم النحت ، ومع هذا فإنه كان لهم صبر وجلد على أعمالهم ليس لمن بعدهم . قال الوصيفى (١) ، قال رجل قبطى ، وقد أجرينا من هذا الذى ذكرنا (ج) ، إنهم أصابوا فى بعض الكنائس فى طاق سفطا فى (د) سلة ففتحوها فوجدوا فيها فرقلة فعجبوا منها ولم يدركوا لها معنى ، فطرحوها فى النار فكانت تثب من النار حتى تبلغ سقف الكنيسة فكسروها (ر) ، ثم ندموا على فسادها .

(ا) « وليه » ناقصة فى ب .

(ب) الجمل الواقعة بين (ب) ، (ب) ناقصة فى ج .

(ج) القراءة فى ج : من هذا الذكر . (د) « فى » ناقصة فى ب .

(ر) « فكسروها » ناقصة فى ب .

(١) انظر فيما سبق هامش ٢ ص ٦٠

قال : الناظر هذه مدينة الإسكندرية يطمع فيها عدو صقلية أبدا ، ويجشم مراكبه بأهوال تصيبه عليها ؛ فمنها ما أدركته عشية العاشر(ا) من محرم سنة ٥٧٠ [= ١١ أغسطس ١١٧٤]. وذلك أنه احتفل فى مراكب كثيرة ونزل فى ساحلها وحصن ما قدر وعزم على محاصرة البلد ، فما كان إلا أن عزم على المقارعة حتى صاح فى الأعداء صائح وصرخ بينهم صارخ فولوا مدبرين(١) ، وقتل بعضهم والحمد لله رب العالمين .

وفتح الله تعالى ببركة هذا الأمر (ب) العزيز على المسلمين بديار مصر ، عند ما سمح بخاطر أمير البلاد بها ، وهو يوسف بن أيوب الكردى ، المخطط بصلاح الدين ، أن يخاطب الخليفة الإمام أبا (ج) يوسف يعقوب(د) بن الإمامين الخليفتين رضه أجمعين ؛ فهزم روم الشام واستأصل شأفتهم ، وفتح بيت المقدس شرفها الله ، وجميع تلك البلاد التى كانت بأيدى أعداء الله . ونص الرسالة الواردة بصورة فتح ، كلام مختصر من كتاب وصل من الإسكندرية(ر) ، تاريخه فى العشر الوسط من شعبان المكرم سنة ٨٣ [ه] [= أكتوبر ١١٨٧] ، يصف ما سناه الله تعالى ويسره بقدرته من الفتوحات فى الروم دمرهم الله تعالى(٢). وذلك أن رسل ملكهم وصلوا إلى دمشق فى الصلح ، فأراد يوسف بن أيوب أن يصالحهم ويعقد لهم الصلح على أن يدفع لهم ١٠٠ ألف أردب من القمح مع المضاف إليه ، وكان بن أخيه ، المخطط عندهم بتقى الدين ، قد تصاهر مع أمير التركمان وجاء بخلق كثير من الأتراك ، فلما عاين عمه يريد الصلح عز عليه ذلك وغضب . فسأله عمه عن شأنه فقال له : يأتى الناس متطوعين مسارعين للجهاد وتصالح أنت الأعداء الروم ، ماذا يقوله أهل العراق وأهل الأمصار عنا . فقال يوسف لابن أخيه : تعرف ما صنع أصحابنا

(ا) « العاشر » ناقصة فى ب .

(ب) ج : الأمير . (ج) « أبا » ناقصة فى ب . (د) ب : بن يعنوب .

(ر) ب : بكلام مختصر بكتاب وصل من الاسكندرية .

(١) فيما يختص بمحاولة الصقليين الفاشلة من أجل الاستيلاء على الاسكندرية سنة ٥٧٠هـ = ١١٧٤ ، يعطى ابن الأثير تفصيلات مهمة عن أسطول العدو ومعدات القتال وعن استراتيجية وتكتيك المعركة التى انتهت بانسحاب المهاجمين ، بعد قتال دار طوال أربعة أيام (الكامل ، ج ١١ ص ٥٧٠ ؛ أبو شامة ، ج ١ ص ٢٣٤) .

(٢) بعد انتصار صلاح الدين المدوى على الصليبيين وفتح بيت المقدس ، بعث الرسل إلى ملوك الاسلام فى مختلف الجهات يعلنهم بالنبأ السعيد . أنظر عماد الدين ، ص ٥٨ — ٥٩ ؛

G. . Demombynes, Mèlanges Réné Basset, 1915, Une Lettre de Saladin au Calife almohade, p. 279.

يوم الرملة ، وقد كان خرج معهم إلى لقاء الأعداء الروم فهربوا وتركوه ، وكاد أن يقتل أو يؤسر ، وأخذ له جميع ما كان معه من عدد وأمتعة ، وذلك سنة ٥٧٢ . فلما سمع الأجناد (ا) قالوا : صدق ونحن تائبون ونحلف له(١). فدخل تقى الدين مع الأمراء وأشياخ الأجناد على يوسف ، وحلفوا له كلهم فى المصاحف أنه لا يشرب أحد منهم كأس خمرة أبدا ولا يرتكب معصية . فلما حلفوا كلهم . فرح يوسف بذلك وأرسل إلى الرسل ، فاجتمع الرسل مع تقى الدين ومع على بن يوسف بن أيوب وجماعة أشياخ الأجناد فاشترطوا شروطا كثيرة فى مصالحتهم : منها ألا يؤخذ من أحد مكس ؛ وأن ترد بعض البلاد . فغضب الرسل ووقع بينهم كلام كثير وقالوا بيننا وبينكم السيف ، فاستخف الرسل بكلامهم وفارقوهم ، فقامت قلوب المسلمين وليقضى الله أمرا كان مفعولا . وخرجوا بنيات صادقة وعزائم ناجحة ، فأخذوا طبرية من فورهم ، وبقيت قصبتها لأنها مانعة جدا(٢). ووصل الروم دمرهم الله فى جمع حفيل طامعين فى المسلمين ، فمنعهم المسلمون الماء ، فعزموا على المقاتلة ؛ وصفت الصفوف غرة جمادى الأول ، وقيل إن المقابلة كانت فى يوم الجمعة الـ ٢٠ من ربيع الآخر [٢٩ يونيه] ، فكان يوما عظيما ، دفع عليهم الروم دمرهم الله ١١ دفعة والمسلمون بحمد الله ثابتون ، فدفع عليهم المسلمون دفعة واحدة فلم يقف منهم أحد ، فهم بين أسير وقتيل ؛ وأحصى عدد من قتل وأسر ٢٢ ألفا . وأخذ ملوك الروم أسارى وأعيانهم وصاحب الكَرَك والشوبَك ، وقد كان هذا اللعين صالح يوسف ابن أيوب وغدره ، فلما مثل بين يديه فى جملة الأسارى ، لم يتمالك أن قام يوسف بن أيوب فقتله بخنجر كان بيده(٣). ثم قاتل يوسف قصبة طبرية فرغبوا فى المصالحة ، فحصن البلد وقصبته وبعث الأسارى إلى دمشق(٤) ؛ وأسرع السير إلى عكة فدخلها صلحا وأخرجهم منها دون سلاح ولا عدة(٥). وقد كان سيف الدين ، أخو يوسف المذكور ، حصر يافا ودخلها صلحا ،

(ا) « الأخبار » ناقصة فى ب .

(١) حسب أبى شامة (ج ١ ص ٢٧٣) دارت هذه المعركة التى انهزم فيها صلاح الدين سنة ٥٧٣هـ = ١١٧٧م .

(٢) أنظر عماد الدين ، ص ٢٢ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥١ — ٣٥٢

(٣) أنظر عماد الدين ، ص ٢٥ وتابع ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٢

(٤) أنظر عماد الدين ، ص ٢٨ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٥

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٩ ؛ ج ١١ ص ٣٥٥

فوجد أهلها قد قتلوا أسارى المسلمين ؛ فقتلهم أجمعين[1] ، ونزل على عسقلان ، واتصل به أخوه يوسف بعد أن ترك على صور عسكرا يحصرها ، ودخل عسقلان آخر جمادى الثانى [= ٥ سبتمبر][2].

وعدد البلاد التى فتح الله تعالى وأسماؤها هى هذه :

الدارُوم وغزة وعسقلان وأرسوف ويافا وحَيْفا وقَيْصارية وعكة وإسكندرية وصيداء وبيروت وجبلة — أسلم صاحبها وجماعة معه . وفتحت تِبْنين وجبل الطور والفولة وناصرة — مدينة المسيح عم — وطبرية وفلَسْطين ونابلس وبينا وصَفُّورية والرملة . ونهض يوسف بن أيوب خارج عسقلان إلى بيت المقدس ، وقال للأجناد : بيت المقدس لكم طعمة[1] ، فدخله منتصف رجب سنة ٨٣[٥] [= ٢٠ سبتمبر ١١٨٧][3] بعد ٩٥ سنة بأيد الروم أو نحوها ، وقد كانوا تملكوه فى شعبان سنة ٤٨٨ هكذا [= أغسطس ١٠٩٥]. ونص النسخات التى وصل بها الطائر إلى الإسكندرية من مصر بصورة فتحه هو هذا المسطر .

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على سيدنا محمد وآله

سرح هذا الطير الطائر ورفيقه فى أول ساعة من نهار الأربعاء ، عند ورود البشرى بالمكاتبة المعظمة السلطانية ، بتاريخ يوم الجمعة ٢٨ من رجب سنة ٥٨٣ [= ٣ أكتوبر ١١٨٧] بما من الله تعالى به من فتح بيت المقدس ، ورفع الأعلام الناصرية فى أشرف موضع فيه . وتقرر على كل من فيه لشراء أنفسهم الرجل بـ ١٠ دنانير والمرأة بـ ٥ دنانير والطفل بدينارين ، وتلك نعمة لا تحصر ولا تحصى . وعدد من خلص فيه من أسارى المسلمين ٤٠٠٠ أسير[4] ، وكان له فى النفوس من الفرح والجذل ما لا خفاء فيه .

(١) الجملة الأخيرة ناقصة فى ب .

(١) انظر عماد الدين ، ص ٣٢ ؛ ابن الأثير ، ج ١١ ص ٣٥٧

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٤ ؛ ج ١١ ص ٣٦٠

(٣) نفس المصدر ، ص ٤٧ وتابع ؛ ج ١١ ص ٣٦٧ ؛ أبو شامة ، ج ٢ ص ٩٣

(٤) حسب شروط المعاهدة اتفق على أن من لم يستطع فدية نفسه خلال أربعين يوما يصبح عبدا . وعند انتهاء هذا الأجل فقد ١٤ ألف رجل و٧ آلاف امرأة حريتهم . أنظر عماد الدين ، ص ٥٥

وكل ذلك ببركة استجابة هذا الرجل لطاعة الإمام — مهد الله عمره — وقد بعث إرساله بما وجد فيه وفى تلك البلاد من الذخائر . وهم الآن فى مدينة فاس - حرسها الله - مستمعين للأوامر المطاعة ؛ ونحن الآن فى شهر رمضان الفرد من سنة ٥٨٧ [= سبتمبر — أكتوبر ١١٩١] ؛ وكان اجتماع هذا الرسول وهو عبد الرحمن بن محمد بن منقذ الأزدى (١) سادس محرم سنة ٨٨ [٥] [= ٢٣ يناير ١١٩٢] بالخليفة الإمام أبى يوسف رضه ؛ وخرج من الحضرة بعد ذلك بخمسة أيام ولم يعلم به[1].

(١) ج : الأزرق .

(١) لم يكن انتصار صلاح الدين نهائيا إذ تشبث الصليبيون ببعض النقط على الساحل وخاصة فى صور . وبعد قليل تمكنوا من محاصرة عكا وضغطوا ضغطا شديدا على صلاح الدين الذى كانت تنقصه القوة البحرية المناسبة . وهكذا اضطر إلى طلب المعونة من أبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى . ولكن لما كان هذا الأخير فى صراع مستمر ضد النصارى فى الأندلس والثوار فى إفريقية، فإنه لم يستطع إجابة هذا الطلب العزيز على كل المسلمين (أنظر سعد زغول عبد الحميد، العلاقة بين صلاح الدين وأبى يوسف يعقوب المنصور الموحدى ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، سنة ١٩٥٣م) .

ونلاحظ هنا ، ربما بشىء من التعجب ، أن المؤلف بعد أن أثبت تاريخ تدوين كتابه (سنة ٥٨٧=١١٩١) عاد ليقول إن رسول صلاح الدين غادر العاصمة الخلافية فى السنة التالية (٥٨٨= ١١٩٢) . ولا ينبغى أن يخدعنا هذا التضارب إذ الحقيقة أن المؤلف أضاف ، كما كانت هى العادة ، هذه الأسطر إلى كتابه الذى كان قد تم عند رحيل السفير .